شهادة ذاتية

.. وانتقلت بي الأحلام إلى الضفة الأخرى

خولة الدرابيع

آهٍ على ماضٍ اندثر وثنى بين طياته قصة تبلورت بين الصمت الخافت والجنون القاتل الذي أحدث ثورة حول تجارب حقيقية تلعثمت بها إنسانية وصلت إلىً حفرة الانخراط في معايير الحقيقة والبحث عن رؤى بعيدة عن الخوف والغموض. هنيهات صغيرة بدأت القصة تكشف الحجاب عن عينيها الجميلتين اللواتي يزينهن سحر الجمال ولمسة الطبيعة، والآن حلقة في سمائها عصافير الحرية ورياحين السعادة المجبولة بحناء يديها اللتين أوصلتاني إلى جسر العبور، وانتقلت بي الأحلام إلى الضفة الأخرى، وبدأتُ المشوار.

إنها فتاة صغيرة، تلعب أمام ساحة السقيفة، ترسم دائرة وتقول وقعت الحرب بيننا وبين . . . ولكن للعمر ضريبة، غرست شجرة الزيتون، سقيت بدماء أجدادنا، في السنة القادمة حمل الزيتون وقطفنا الزيتون، بقيت جذور الزيتون مغروسة، ولكن الفتاة امتدت أغصانها وترعرعت بها الأحلام وحملتها إلى هناك، إلى أرض الميعاد. في البداية كانت حزينة لأنها تركت مسقط رأسها وأهلها وأصدقائها واختارت العلم بطريقه الطويل وجهده الذي ما زالت تعيش فيه، لم تحصل على معدل يدخلها الجامعة في الأردن، علقت القيود في يديها، وحبست في زنزانة الظلم والحرمان والبحث عن طريق تسير به إلى جامعتها، وتعود بها إلى خبز أمها، ولقمة العيش، والتنور ساعةً يشع إشعاعات تلبي نداء محرومة، جاعت وجفت عروقها ولكن لا يأس مع الحياة ولا حياة مع اليأس. فجأة، صحوت من حلمي وإذ بي أسير في ربوع فلسطين الخضراء، والحقيبة على جانبي الأيسر والقلم بيدي، وينادي أخي الذي لا أنسى وقفته معي، قال: لا تحزني يا أختاه . . . لا تقلق يا أبي سأتكفل بمصاريفها ولن نخسر أختي مهما كان، وسنبذل الغالي والنفيس من أجلها، وهمس أبي بصوت خافت "الله يرضى عليك يابا، ويفتح لك أبواب الرزق". اقتربت الآفاق وابتعدت فضاءات النور والعلم، وأنا أردد "أريد أن التحق بأعلى تخصص بالجامعة"، وكنت أحب الحاسوب كثيراً وأرى أصابع فضية تتكتك وتنسج بيوتاً للعلم والمعرفة، وتمسح دموع الحزن، وتفرش بساطاً أخضر جميلاً، تقول هنيئاً لك أيتها الفتاة بشهادة الكبرياء، تلك الشهادة التي في سبيلها لم تستطعي أن تكفني أمك بنظرة أخيرة أو بلمسة وداع تلك الحسرة التي دفنت في قلبي، والتي لن تموت إلا مع موت صاحبتها!

أصبحت معلمة في بنات الصرة الثانوية، الله ما أجمل هذه الكلمة! بحثت عنها وانتظرتها طويلاً، والحمد لله دائماً أبحث عن الصواب وتميل بي الأفكار، هل يا ترى ما أدرسه صحيح أم أني لم أفِ طالباتي حقهن؟! وبقي السؤال ينتابني مرة ويتركني دقائق قليلة. زميلتي ومديرتي الفاضلة نضال السيخ ما رأيك أن تحضري معنا يوماً دراسياً في رام الله في مركز القطان عن تجارب معلمين؟! بدأت أفكر . . . لم ينقطع حبل أفكاري، ولكن أسأل نفسي: أنا لا أحمل هوية، كيف أصل هناك، أغمض عيني وسرعان ما تبرق.

انطلقت مركبة التحدي من أمام منزلنا متجهة إلى مدينة رام الله على الرغم من كل الظروف والحواجز، وعندما كنا نتوقف على حاجز كان يتوقف القلب، ويبقى سؤال لو ولماذا وكيف يلح عليّ، لكن لا بأس، فأطمح إلى غد يثنيني بين أحضانه إنساناً يبحث عن الحريةِ والتفاعلات الإنسانية التي تجدد الفكر والانفعال معاً، فكلاهما خطّان متوازيان متشابكان لا ينقطعان ولا ينفصمان.

أنا أحضر للمرة الثانية إلى مركز القطان، فعندما دخلته للمرة الأولى كنت أتساءل ماذا سأرى؟ وكيف أشارك وأنا لم أستعد لأي شيء؟ وكان ذلك في الأول من أيار، ودهشت بشكل غير طبيعي، رأيت لافتات جميلة، وعروضاً تطبيقية لمعلمين، ومشاريع لدروس تربوية تعليمية جميلة، ترجمت الإبداع الصامت المحفور بين الأحشاء، إلى إنسان متكلم يجسد بكل أعضائه وهواجسه معنى العلم والتربية والمعرفة، وبالفعل وجدت الجواب عن السؤال الذي طرحته في البداية، فوجدت المعلمة نفسها على عتبة الضمير الحي والطريق الصحيح، حتى أنني طوال طريق عودتنا لم يسكت لساني عن الكلام، وازدادت نبضات قلبي وأنا أتحدث عما رأت عيناي، وسمعت أذناي، هل أنا في حلم أم علم؟ وأخذت على نفسي عهداً أن أواجه وأتحدى وأكسر كل حواجز الصمت والخجل والخوف، وأطبق كل ما أراه سليماً ويصدقه قلبي، وأني سأقابل كل معلمة ومعلم برجاء أن يبتعد عن أسلوب التلقين، ويجعل العمل مع الطالب هدفاً مباشراً، ويسعى لتغيير أسلوبه التدريسي الذي يتبعه البعض.

في النهاية، أشكر مركز القطان، والمعلمين الذين قدموا تجاربهم في هذا اليوم الذي عبر عن مدى انتماء المعلم الفلسطيني إلى وطنه.

خولة الدرابيع
منتدى معلمي دورا